وحيدا فريدا في أرض يقال لها كربلاء فقبّليه في نحره فإنه موضع السيوف، وشمّيه في صدره فإنه موضع حوافر الخيل.

مضى في طريقه. قصد النهر ليروي عطشه. مد الجواد رأسه ليشرب. رفع رأسه من الماء كأنه يقول يا سيدي لا أشرب حتى تشرب أنت. لم يشرب ولا شرب الجواد. أصابوه في كبده، تم رموه في نحره. مال من على ظهر الجواد ليسقط، فمال الجواد معه مال على الناحية الأحرى، فمال الجواد معه، قال له أنزلني، بسط الجواد قوائمه وأنزله على الأرض. وضع يده تحت نحره حتى امتلأت دما ثم رمى به إلى السماء، فلم تعد منه قطرة. ملأها ثانية ورماها ناحية المعسكر. ملأها ثالثة فخضّب بها وجهه ولحيته وهو يقول: هكذا أكون مخضّبا بدمي، غريبا مظلوما مغصوبا على حقي إلى أن ألقى الله وأشكوهم إلى جدي.

انطلق الجواد إلى المخيم، سمعته زينب، فقالت لسكينة: يا سكينة هذا أبوك قد أقبل فاخرجي له، فلما رأت سكينة الجواد مخزيّا والسرج مليّا مخضّبا بالدماء خاليّا من أبيها صرخت: «يا مهر حسين وين حسين ولّى؟».

خرجت زينب للبحث عن أخيها بين الشهداء والقتلى، وجدته ينزف على الطفّ. وضعت رأسه في حجرها وهي تصيح: أخي بحق أبينا كلمني. لم يجبها. أخي بحق جدنا كلمني. لم يجبها. أخي بحق أمنا كلمني. فتح عينيه وأجابها بصوت ضعيف: زينب، ماذا تريدين؟!

أغفي الناظر وبدا له أنه يستكمل في غفوته الاستماع إلى صوت زينب وهي تندب أخاها.

في الصباح استيقظ، قام من فراشه وأعد لنفسه كوبا من الشاي والتف بعباءته وراح يحتسيه وهو جالس على مقعده. قال: أشرب الشاي ثم أجلس للكتابة.